الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

ظاهرة سفر النّساء في مجموعات

موضة العصر بين الحرية المزعومة وتفكيك قيم الأسرة

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في قاعة انتظار مطار دولي، تجلس مجموعة من النساء من أعمار وخلفيات متنوعة، تربطهن رحلة مشتركة نحو وجهة بعيدة، بعضهن يحملن حقائب مليئة بالأحلام المؤجّلة، وأخريات يقلّبن صفحات كتب عن ثقافات لم يعشنها من قبل، وفي هذا المشهد البسيط تتجلّى إحدى أبرز الظواهر الاجتماعيّة في عصرنا الراهن، ألا و هو تنامي ظاهرة السفر النسائيّ الجماعيّ كتعبير عن تحوّلات عميقة في بنية المجتمع وأدوار المرأة فيه....

فهذه الظاهرة التي تتخطّى حدود الترفيه والاستكشاف، تحمل في طيّاتها أسئلة جوهريّة حول طبيعة التّغيير الاجتماعي في القرن الحادي والعشرين...

فهل نحن في عصر يشهد على ولادة نموذج جديد للاستقلاليّة الأنثويّة؟

أم أنّنا أمام تعبير معاصر عن حاجة إنسانيّة أزليّة للاكتشاف والتّواصل؟

وأنّى لنا بفهم كيفيّة هذا التّوجّه في سياق التّوازن بين الطّموحات الفرديّة والالتزامات الاجتماعيّة، بين الرّغبة في الانطلاق والحاجة للانتماء؟

إنّ الحديث عن ظاهرة سفر المرأة وخروجها في عصرنا الحاضر يتطلّب منّا بداية التأطير لهذا الطّرح بالعودة إلى الأصول الشرعية والضوابط الإسلاميّة التي أرساها ديننا الحنيف، لا من منظور التضييق أو التّقييد، إنّما من منطلق الحكمة الربّانيّة التي تهدف إلى صيانة المرأة وحمايتها وتكريمها، فالإسلام دين يسر لا عسر، ودين حكمة لا جمود، فقد وضع ضوابط محكمة لخروج المرأة وسفرها لا لحبسها أو الانتقاص من شأنها، بل لأنّه يعتبرها كالجوهرة المصونة التي تستحقّ الرعاية والحماية والحضانة، فقد قال رسول اللّٰه ﷺ: " لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم"، وهذه الضوابط الشرعية تنطلق من مقصد أساسيّ ألا وهو حماية أخلاق المرأة والمحافظة على قيمها وكرامتها في مجتمع فاضل يقدّس الأنوثة ويحرص على ألاّ تكون المرأة عرضة للمتطفلين أو المعتدين، وفي هذا السياق، فقد استوجب التحذير من خطر الاسترجال الذي قد تقع فيه بعض النساء جرّاء التساهل في هذه الضّوابط، كما تحتّم على الرّجل ألاّ يسلك مسلك الديّوث فيقبل أنْ تنحرف محارمه عن جادّة الصّواب أو تدخل

في دائرة الشّبهات والمحرّمات. كالاسترجال والانفتاح مع الآخرين دون ضوابط شرعيّة، ومع تطوّر العصر ومستجدّاته، فإنّ هذه الضوابط تحتاج إلى إعادة هندسة في أطرها ووسائلها لتصبح أكثر مرونة للتماشي مع متطلّبات الزمان، مع الحفاظ على ثبات المقصد الشرعي الأساسي وهو الحماية وصيانة الأخلاق.

لذلك فإنّ محاولة فهم هذه الظاهرة تستدعي نظرة متأنّية تتجاوز الأحكام المسبقة، نظرة تقرأ في هذا السّلوك الاجتماعيّ النّاشئ مؤشّرات على تحوّلات أعمق في فهم المرأة لذاتها ودورها، وفي تعامل المجتمع مع هذا التّطوّر، فهنا دعوة لاستكشاف الدّوافع الكامنة وراء هذا التّوجّه، والتّأمّل في انعكاساته على النسيج الاجتماعي المعاصر، دون إغفال التحدّيات والفرص التي يحملها معه....

فالحديث عن ظاهرة سفر النّساء في مجموعات ليس مجرّد تحليل لنمط سياحيّ عابر، إنّما هو استكشاف لأعماق الروح الإنسانيّة المعاصرة التي تتأرجح بين الحنين للجذور والتوق للحريّة، فهذه النسوة اللاتي يجمعن حقائبهنّ ويتّجهن صوب افاق بعيدة، إنّما يحملن في طيّات رحلتهنّ أسئلة أزليّة حول طبيعة الوجود الأنثويّ في عالم يعيد تشكيل قوانينه الاجتماعيّة والأخلاقيّة بوتيرة متسارعة....

فلو شئنا تتبّع جذور هذه الظّاهرة، لوجدناها تنبع من تحوّلات جذريّة في بنية الوعي الإنسانيّ المعاصر، تحوّلات بدأت من الاستقلاليّة الاقتصاديّة التي حقّقتها المرأة لا كرقم في الحسّاب البنكيّ، بل من منطلق إعادة تعريف جوهريّة لمعنى الوجود الأنثويّ، والتّحرّر من قيود الضّرورة الاقتصاديّة التي كانت تحبس المرأة في دوائر محدّدة، فنقلتها إلى فضاء الاختيار الحرّ...

ومن ثمّ لوجدناها تتأثّر بتبعات الطفرات الرقميّة، فلسنا أمام موجة تكنولوجيّة عابرة، إنّما نحن نتعامل مع ثورة تمسّ طبيعة التواصل الإنسانيّ، فقد باتت منصات التواصل الاجتماعي تقوم بنقل صور الرحلات كأمر بديهيّ، فتعيد بذلك تشكيل مفهوم المجتمع بحدّ ذاته، فباتت النساء وفقاً لذلك يشكّلن مجتمعات افتراضيّة تتجاوز الحدود الجغرافيّة والثّقافيّة، ويتبادلن من خلالها أحلامهنّ ومخاوفهنّ وتطلعاتهنّ.

ومن الجدير بالذكّر، أنّ هذه المجتمعات التي أنتجتها تطلّعات النّساء قد حملت في ثناياها تحوّلاً في المفاهيم الثقافيّة فيما يتعلّق بدور المرأة، ممّا أحدث زعزعة معرفيّة حقيقيّة في هذا المجال، فنتيجة لذلك بتنا نرى

المجتمعات التي كانت تؤمن بفلسفة الحماية كأساس للعلاقة مع المرأة، تعايش فلسفة جديدة اليوم قائمة على التمكين، فهذا التحوّل لا يمسّ النظرة إلى المرأة وحسب، إنّما يعيد تشكيل النسيج الاجتماعيّ برمّته، ويطرح أسئلة جوهريّة حول طبيعة العلاقات الإنسانيّة وجوهر فكرة المسؤوليّة المتبادلة....

ومن زاوية أخرى، فإنّ امتلاء الحياة المعاصرة بالضّغوط والالتزامات، سيفرز نوعاً من الرحلات النسائيّة الجماعيّة التي تسعى للبحث عن المعنى المفقود، في محاولة جادّة لاستعادة الذات أمام عالم يبدو وكأنّه يسحق الفرديّة تحت وطأة الروتين والمسؤوليّات، فهذا البحث لن يكون مجرّد هروب، بل هو رحلة داخليّة نحو إعادة اكتشاف الجوهر الإنسانيّ للمرأة بعيداً عن الأدوار الاجتماعية المفروضة.....

وأمام هذه الفلسفة التي تطالب بالحريّة والتّمكين، نجد مؤيّدات أو معارضات، وحججهنّ في ذلك تنبثق من فكرة يؤمنّ بها... فنرى مؤيدات هذه الظاهرة يستندنّ في آرائهنّ إلى حجج تتجاوز السّطحيّة لتصل لأعماق الفلسفة الوجوديّة، فالاستقلاليّة التي يبحثن عنها ليست مجرّد قدرة على اتّخاذ قرارات فرديّة، بل هي تأكيد لكرامة المرأة وقدرتها على صنع مصيرها، ورفضها للوصاية، وإعلان عن النّضج الروحيّ والفكريّ لها، فالرّاحة النّفسيّة التي يبحثن عنها في هذه الرّحلات لن ترتبط بالاستجمام والاسترخاء كأساس حيويّ، إنّما هي راحة منبعها ضرورة وجوديّة لاستعادة التّوازن في عالم يضع على كاهل المرأة أعباءً مضاعفة، فهي لحظات تأمّل وتفكّر تساعد على إعادة ترتيب الأولويّات وفهم المعنى الحقيقيّ للحياة، ناهيك عن أنّ هنالك العديد من الرّوابط الاجتماعيّة التي ستتعزّز من خلال هذه الرّحلات، فهي ستمثّل شكلاً جديداً من التّضامن النسائيّ القائم على الاختيار الحرّ لا على القرابة البيولوجية أو الجغرافية، أي يمكن تصنيفها بأنّها نوع من شبكات الدعم العاطفي والنفسي التي تساعد النساء على مواجهة تحدّيات العصر....

وعلى الجانب الآخر، فإنّ أصوات المعارضة تنبثق من قلق منشؤه الخوف على الجذور والهويّة من التفكّك، فهو قلق مشروع حول مصير النسيج الاجتماعي التقليديّ، فالتماسك الأسريّ الذي يخشون تفكّكه ليس مجرّد نوع من الترتيب الاجتماعي، إنّما هو نظام قيميّ متكامل نشأ عبر قرون من التّطوّر الثقافيّ والحضاريّ، فهم يرون في هذه الظاهرة تهديداً لمنظومة العلاقات التي كانت تشكّل الهويّة الجماعيّة للمجتمع، فالمخاوف الأمنية التي يطرحونها تنبع من إدراك عميق لطبيعة العالم المليء بالمخاطر، إذ يرون أنّ الحماية الأسرية

ليست قيداً بل ضرورة وجوديّة، فهم يؤمنون بأنّ الأمان الحقيقيّ لا يكمن في القوة الفرديّة، بل في قوّة الشبكة الاجتماعيّة المترابطة، ويرون أنّ في هذا التوجّه محاولة لضرب جذور القيم الدينية والثقافية، فهي ليست مجرّد تقاليد بالية، بل هي حكمة تراكميّة تحمل في طيّاتها تجارب الأجيال ومعرفتها بطبيعة الحياة الإنسانيّة، والتخلي عن هذه القيم يعني فقدان البوصلة الأخلاقيّة التي توجّه السلوك الإنسانيّ....

وبين هؤلاء وأولئك تظهر التداعيات الوجودية لهذه الظاهرة، بحيث تتجاوز آثارها السطح إلى أعماق البنية الوجودية للمجتمع، فتقوم بإعادة تعريف المعنى الفعليّ للحياة بأكملها، فعلى مستوى الأسرة، سنشهد إعادة تفاوض جذريّة حول طبيعة العلاقات الإنسانية، إذ سننتقل من نموذج الهيمنة والخضوع إلى نموذج الشراكة والتفاهم المتبادل، وعلى مستوى المجتمع، فإنّ هنالك حالة من القلق الوجودي حول مصير الهويّة الثقافيّة ستبرز بقوّة وتمثل لمواجهة التيّارات الحداثيّة، فنقف في عين الإعصار لصراع عاتٍ بين رؤيتين للعالم، إحداهما تؤمن بالثبات والاستمراريّة، والأخرى تؤمن بالتّغيير والتطوّر والحداثة والانفتاح، أمّا على المستوى الاقتصاديّ، فإنّ ظهور سوق سياحيّ نسائيّ متخصّص يعكس تحوّلاً في طبيعة الاقتصاد ذاته من اقتصاد قائم على الوحدة الأسرية إلى اقتصاد قائم على الاختيار الفرديّ...

ولذلك وفي خضمّ هذا الجدل المحتدم، تبرز الحاجة إلى رؤية توليفيّة تتجاوز ثنائية القبول والرفض إلى فهم أعمق لطبيعة التحوّل الاجتماعيّ، فهذه الظاهرة ليست موضة عابرة كما يصفها البعض، ولا هي تدمير للقيم كما يحذّر آخرون، بل هي تعبير عن تطوّر طبيعيّ في الوعي الإنسانيّ، والحكمة تكمن في القدرة على التمييز بين الجوهر والشكل، وبين الثوابت والمتغيرات، فالقيم الإنسانيّة الأساسيّة كالمحبّة والرحمة والتّكافل يمكن أنْ تتجسّد في أشكال جديدة تتلاءم مع روح العصر، دون أنْ تفقد جوهرها الأزليّ...

فالمطلوب اليوم هو فتح باب حوار حقيقيّ يتجاوز الخطابات الجاهزة إلى استكشاف مساحات التقاء جديدة، حوار يأخذ في الاعتبار الحاجات الوجودية للمرأة المعاصرة دون إهمال القيم الأساسية التي تشكّل هويّة المجتمع، حوار يتطلّب من الأطراف جميعها قدراً من التواضع الفكريّ، والاستعداد لإعادة النظر في القناعات الراسخة، والبحث عن حلول إبداعيّة تحترم التنوّع وتحافظ على التماسك الاجتماعيّ...

فمن البديهيّ أنّنا لا ننادي بالتّخلي عن مفهوم الأسرة في حال طالبنا بتطوير الأطر الأسرية، إنّما ننادي بإعادة تعريفها بما يتلاءم ومتطلبات العصر، فالأسرة القويّة هي التي تستطيع التكيّف مع التغيّرات دون أنْ تفقد

هويّتها الأساسية، وتمنح أفرادها المساحة الكافية للنموّ الشخصيّ دون أنْ تتخلّى عن مسؤوليّاتها التربويّة والأخلاقيّة، لذك فإنّ أهمّ ما تحتاجه المرأة المعاصرة، تطوير وعي أخلاقيّ عميق يمكّنها من الموازنة بين حقوقها الشخصية ومسؤوليّاتها الاجتماعيّة، وهذا الوعي لا يأتي من التلقين أو الوعظ، إنّما من التأمّل العميق في طبيعة الوجود الإنسانيّ ومعنى الحياة الكريمة....

وبعد،

فإنّ ظاهرة سفر النساء في مجموعات ليست مجرد حدث اجتماعيّ عابر، بل علامة تحوّل حضاريّ كبير تشهده الإنسانيّة شاء من شاء وابى من أبى، فهي دعوة للتفكير العميق حول طبيعة العلاقات الإنسانيّة في عصر العولمة والرقمنة، وحول معنى الحرية والمسؤوليّة في مجتمعات تعيد تشكيل قيمها وقوانينها...

فهنّ كطيور مهاجرة يحلمن في رحلتهنّ حكمة الفصول وضرورة التكيّف مع متغيّرات الطبيعة، فهؤلاء النسوة المسافرات يحملن في رحلتهنّ أسئلة وجوديّة عميقة حول مستقبل المجتمع الإنسانيّ..

والحكمة الحقيقيّة تكمن في الاستماع إلى هذه الأسئلة بقلب مفتوح وعقل واعٍ، والبحث عن إجابات تحترم كرامة الإنسان وتحافظ على نسيج المجتمع في آنٍ واحد، والقيام بدراسة متأنية بعيداً عن التبسيط أو الإدانة المسبقة، فما يدربنا لعلّ في هذه الرحلات الجماعيّة بذور نموذج جديد للعيش المشترك، نموذج يجمع بين الحرية والانتماء، بين التطوّر والأصالة، بين الحداثة والقيم الإنسانيّة الأزليّة، ولعلّ المستقبل سيشهد ولادة توليفة حضاريّة جديدة تستوعب تطلّعات المرأة المعاصرة دون التضحية بالحكمة التراكميّة للأجيال....

ويبقى أنْ نذكّر لعلّها تنفع الذكّرى،

بأنّ ما تقدّم نقاش وطرح لهذه الظّاهرة قد استوجب عدم فصله - أيًّا كان منظورنا ووجهة نظرنا - عن ضوابط الشريعة الإسلامية، التي جاءت بأحكام محكمة ومرنة في آنٍ واحد، أحكام تجمع بين ثبات المقاصد وتغيّر الوسائل، فلا ننسى بأنّ الهدف الأسمى من هذه الضوابط ليس تقييد حرية المرأة، بل تكريمها وحفظ كرامتها وصيانتها من كلّ ما يمسّ شرفها أو يعرّضها للأذى...

فاليوم، مع تطوّر وسائل الاتصالات والمواصلات، وانتشار القوانين التي تحمي المرأة، يمكن للاجتهاد الفقهيّ المعاصر أنْ يجد صيغاً جديدة لتطبيق هذه الضّوابط بما يحقّق مقاصدها الشرعيّة دون إيجاد حرج أو مشقّة غير مقصودة، فالمطلوب هو التّوازن الحكيم بين احترام النص الشرعيّ وفهم مقاصده من جهة، ومراعاة متطلّبات العصر ومستجدّاته من جهة أخرى، وذلك تحت مظلّة قول اللّه تعالى:﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾(البقرة:185)، فهذا التّوازن هو ما سيضمن للمرأة المسلمة أنْ تحافظ على دينها وأخلاقها وهي تواكب عصرها وتساهم في بناء مجتمعها، فتكون محاطة بسياج من الحماية الشرعيّة والاحترام المجتمعيّ...